دير السيدة العذراء برحوص

فقراء ولكن..!

سلسلة قصص روحية
قصيرة وهادفة (٢)

صاحب القداسة

البابا شنودة الثالث

الأنبا أرسانيوس

أسقف البيوا أبو قرقاص
ورئيس دير الرهبان

مقدمة

هذا هو الجزء الثانى من سلسلة قصص مسيحية قصيرة وهادفة .. والتى قصدنا منها اتحاف القارىء بشىء من الأدب الرهبانى .. على سبيل التعريف بما يدور داخل أسوار الرهبنة ..

وحقيقى أن القصص الواردة فى هذه السلسلة لم تحدث بالكامل .. ولكن كل موقوف على حدة هو فى الواقع مقتبس من حياة أحد الرهبان سواء الذين لا يزالون فى الجسد أو الذين تركونا إلى المجد ..

وجدير بالذكر أن سير القديسين المعروفة فى التاريخ لا تمثل سوى نسبة ضئيلة جداً من عدد القديسين الذين باركوا كوكبنا ومضوا فى هدوء إلى وطنهم السمائى ..

وعن المفاجئات التى تنتهى بها القصص فما هى إلاّ من قبيل الخروج على الرتابة فى أسلوب الكثير من القصص ..

أخيراً : رجوت أن يضيف هذا الكتيب شيئاً إلى رصيدك الروحى الغنى .

علامـة علـى الطريــق

— ١ —

... ولكنّه أصرَّ على موقفه ، ولم يرقّ لدموع أمه أو يأبه لتوسلاتها ، وغادر المنزل ليستقل القطار المتجه إلى القاهرة ومنها إلى الدير .

وبكل بساطة ودون أدنى مناقشة قبله رئيس الدير ، وأفسح له مكاناً ليسكن بين الاخوة الجدد ، ولم يلتفت إلى تساؤلات الآباء الرهبان وتعليقاتهم .

وقد جرت العادة أن يتردد الأخ الراغب فى الرهبنة مدة لا تقلّ عن السنة ، يقبل بعدها فى الدير ، إذ يتأكد الآباء من صلاحيته ومدى تناسب طريق الرهبنة له ،

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ، بل قبله الأب الرئيس دون قيد أو شرط .

واستطاع هذا الشاب أن يسلك فترة الاختبار المقررة بحذر شديد لكى يكسب ثقة الرهبان وتأييدهم ، ثم ما هى إلّا شهور

قليلة حتى ترهب مع إثنين آخرين ، وأما هو فأسموه ببنودة[1]

ولم يمر شهر واحد على رهبنته (ارتدائه الملابس الرهبانية) : حتى ضجَّ الآباء منه

فقد كان يتصرف بحرّية !، وبدأ يظهر عليه التوانى والكسل ، ولم يحفظ طقسه

فمن تعليقات علمانية إلى هزر سخيف ، إلى مقاطع من أغنيات عابثة كان يرددها بين آن وآخر ..

فى حين أن القديس يوحنا الدرجى يقول :

«الراهب هو الجسد المنقى والفم الطاهر والذهن المستنير» إذا تكلّم : علا صوته وأحدث جلبة ، وإذا جلس : فمع الزائرين والعمال يتحدث فيما لا ينفع .

ويذكر الأب سلوانس أنه دعاه ذات مرّة ليصلى معه القداس الإلهى فقابل دعوته بالسخرية !

كذلك عندما إقترح عليه الأب بيصاريون أن يجلس ليقرأ

---

(١) ببنودة كلمة قبطية مأخوذة عن بفنوتى ⲡⲉϥⲛⲟⲩϯ أى الخاص بالله

معه الكتاب المقدس ، أشاح بيده فى الهواء مستخفاً وضاحكاً ضحكة لا تليق .

وأب إعترافه فى كل هذا وذاك : يتمزق من الداخل ، فلا تدبير قد نفع معه ، ولا توجيه قد خضع له .

إلحَّ عليه بالصوم فلم يحفظ بطنه ، وأشار عليه بضرورة الصمت فلم يستطع كذلك أن يحفظ لسانه فى فمه ، بل أطلقه على الكل !

وبين آن وآخر كان يردد على مسامعه قول الشيخ يوحنا الدرجى «قَدِّم أتعاب شبابك للمسيح حتى تتمتع بنعمة اللاهوى (كسر المشيئة) فى شيخوختك»

ولكنه رأى فيما بعد أنه من المناسب أن ينبه رئيس الدير إلى خطورة الأمر ، وضرورة النظر فى شأن ببنودة ، لا سيّما وأنه لم يعترف منذ ثلاثة شهور : إذاً فالخوف من هلاكه أمر وارد

ووعده رئيس الدير بالتبصّر فى الأمر

وفى اليوم التالى تقابل الأب الرئيس مصادفة مع ببنودة ، فقال له فى اتضاع شيخ : «لا تنس يا أبانا أن الصبر فى القلاية يرد الرهب إلى طقسه ..»

ولكن وكما بدا للشيخ أن ببنودة إعتبر أن القول موجّه إلى شخص آخر .

والعجيب أن قلايته والتى لا يطيق الجلوس فيها ، كانت تحوى كتباً عديدة ومجلدات نادرة ، كذلك فقد تزينت حوائطها بصور حشد كبير من القديسين ، إلى جوار مالا يقل عن الثلاثين لافتة ما بين آيات وأقوال آباء .. ولكنها كانت للديكور فقط !

وتضجّر الآباء منه ، ومنهم من صارحه ، لا سيما عندما كانوا يشاهدونه يقضى أغلب وقته فى طرقات الدير ، يجر رجليه جراً من موضع لآخر فى سآمه وملل ..

كذلك شكا الأب المسئول عن المطبخ إلى رئيس الدير ، بسبب تواجد ببنودة الدائم فى المطبخ وإلى جواره ، مما يعطل العمل ويعثر العمّال والضيوف .

ولكن أصعب ما فى الأمر أن يترك القداس الالهى أو صلوات السواعى ليتمشى فى ساحات الدير .

وبقى رئيس الدير صامتاً كعادته ، لا يعلّق ولا يعاتب أو يعاقب ، وأما ببنودة فماضٍ فى غيّه ...

أخيراً طلب الآباء إلى بعضهم البعض ، أن تقام طلبات خاصّة لأجل أخيهم المعذّب فى هذا الآتون : لعّل الله ينتشله .

وثابر الآباء على الصلاة والطلبة فى كثير من الصبر ، لكن بدا وكأن الله لم يسمع لهم !

— ٢ —

مضى عام كامل ، والأمور كما هى تسير من سىء إلى أسوأ مع الراهب الشقى ببنودة ، واضطر رئيس الدير أخيراً إلى معاقبته ، ولكن لم تفلح أيضا هذه الطريقة فى استمالته إلى حياة القداسة .

وفى أوائل شهر أمشير ، إنعقد المجمع وأقرّ الآباء طرد ببنودة من الدير ، وذلك بقصد أن يثوب إلى رشده ويرجع عن سيرته الرديئة إلى رتبته الأولى .. ولكنهم مع ذلك تركوه شهراً كاملاً قبلما يخبروه بقرارهم ...

بعد انعقاد المجمع بأيام خمسة ، وعندما أرخى الليل سدوله ، طلب ببنودة من الأخ بلامون أن يوقظه بعد ساعتين ، لكى يرتب القلاية وينظفها ..

وذهب لينام .. ولكنه بعد قليل شعر برغبة غير ملّحة للصلاة ، فقام متثاقلاً وأمسك بالأجبية ليصلى صلاة الستار .. بعد أن نفض عنها الغبار .

وما أن وصل إلى المزمور السابع أو الثامن حتى شعر بشىء من الصداع فى رأسه ، وحقيقى أن هذا الصداع كان يأتيه من وقت لآخر ، وكان فى كل مرة ينصاع له ويهب نفسه الراحة ، ولكنه حاول فى هذه الليلة ألاّ يعتّد به وأن يثابر على الصلاة — لاسيما وأنه لم يصلّى من الأجبية منذ شهور طويلة ولا شك أنه فرح بأنه لا يزال فيه بقيّة راهب ! ولكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلاً .

وإزداد الصداع ، فتضّجر ببنودة وألقى الأجبية جانباً ، ووقف صامتاً لعل الألم يخفض أو يختفى ، ولكن الصداع ألحّ عليه .

فأمسك برأسه بين يديه وضغط بكل قوته ، ثم خرج من القلاية متثاقلاً ولا زالت رأسه بين يديه ، إلى أن وصل إلى قلاية الأب اسحق المسئول عن العمل فى صيدلية الدير المتواضعة المحتويات .

وأمام قلايةَ الأب اسحق خشى الأب ببنودة أن يظن أنه جاء

كعادته فى كل يوم للتسكع ولطلب المزيد من الحقن والأقراص ، التى كان يأخذها دون أن يكون فى إحتياج إليها

وإذا تمنى من كل قلبه ألّا يجول هذا الخاطر فى فكر الأب اسحق : طرق الباب متوسلاً أنه متألم بالفعل فى هذه المرة .

وما أن سمع خشخشة خلف الباب حتى اطمأن قلبه ..

فوجىء الأب اسحق ببنودة فاغراً فاه ، وعينيه نصف مغمضتين وقد طوّح برأسه قليلاً إلى الوراء ماسكاً إياها بكلتا يديه ، وبدا للأب ببنودة أنه قد رقّ له

وببشاشته المعهودة وكلماته الرقيقة ، رحب به ودعاه للدخول ولكنه اعتذر مشيراً إلى رأسه ، ثم قال فى صوت خفيض : انه يحتاج إلى الراحة بعدما يتكرّم عليه بأى مُسَكّن .

ودلف الأب اسحق إلى الداخل ليخرج ومعه شريطاً من الأقراص المسكنة وناوله إلى الأب ببنودة الذى أخذه بدوره شاكراً ، وانطلق إلى قلايته لا يلوى على شىء .

ولكن لم تمر ساعة واحدة حتى عاد أدراجه إلى باب قلاية الأب اسحق ، يطرقه فى إلحاح وخجل .

وفتح له مرة أخرى ليجده فى حالة لا يحسد عليها ، فقد

كان يتلوى من شدة الألم ، فأغلق الباب خلفه فى هدوء ، ومشى معه متجهاً إلى الصيدلية ، وفى طريقهم مروا على الأخ بلامون (والذى كان يعمل طبيباً أيضاً) .

فى الصيدلية وعلى السرير الموضوع هناك ، استلقى ببنودة يتجرع آلامه بينما وقف الاثنان يتشاوران بالانجليزية ، وأعطياه حقنة مسكنة للألم ، صحباه بعدها إلى قلايته وتركاه هناك بعد أن وعداه بعرض الأمر على الأب الرئيس حتى يأمر بعرضه على الأطباء المتخصصين بالقاهرة .

وكانت ليلة قاسية تلك التى قضاها ببنودة ، إذ لم يذق فيها طعم النوم ، بل صار يزرع الغرفة ذهاباً وإياباً ، إلى أن ناداه الأب اسحق قائلاً إن السيارة التى ستقلهما إلى القاهرة : جاهزة .

فى المستشفى التخصصى قال الأستاذ بعد الفحص الدقيق : بسيطة .. التهاب خفيف ..

وأوصى بحقنة كل يوم وكبسولة مضاد حيوى كل ثمانى ساعات . ثم أضاف (فى الروشته) : راحة تامة فى السرير ، ممنوع القيام بأى مجهود ..

وفى طريق العودة إلى الدير ، بقى بينودة صامتاً ، لم يتكلم سوى مرة واحدة قال فيها للأب اسحق : سامحنى . تعبتك ..

ورد الأب اسحق فى بشاشة كمن يستنكر : لا تقل هكذا أنا أخذت بركتك (ألف سلامة لك) .

وفى الدير كان الأب اسحق يطمئن كل من يسأله قائلاً :-

بسيطة .. خير ..

وابتدأ بينودة يعود إلى نفسه ويتذكر تهاونه ، وإساءاته إلى اخوته .. ترى ماذا لو أنهى هذا الألم حياتى ؟ (هكذا حدّث نفسه)

كان يبكى مرة من الألم ومرات من الندم على توانيه وعلى الشرور التى صدرت عنه ، ودأب على أن يطلب إلى كل من

يقابله – بضراعة وانسحاق – أن يصلى لأجله .. ويلتمس مغفرتهم ، وهم بدورهم يطمئنونه بأنه أخوهم وبأنهم متأكدون من أن محبتهم راسخة فى قلبه ، ومن ذلك :

أنه بينما كان الأب ويصا يعاوده فى القلاية ، قال له :

– أرجوك يا أبى أن تغفر لى من قلبك شيء اعترف لك به ،

فأنا الذى سرقت كتاب ميامر مار اسحق الخاص بك ، وقمت بتغيير غلافه لأضع اسمى فوقه بدلاً من إسمك ، سامحنى أرجوك ، أغوانى الشيطان وانسقت إلى غوايته ، والكتاب موجود فى الطاقة التى خلفك ، ويمكنك الآن أن تأخذه لكى يستريح ضميرى .

الأب ويصا : هو لك أيضا ، ولا فرق بنى وبينك ، وسيظل عندك واعتبر أن كل ماعندى هو لك .

ببنودة وقد انفجر باكياً من التأثر : إن لم تأخذه فلن يكون لى نياح[1]

الأب ويصا : إذًا استسمحك فى نقله إلى مكتبة الدير العامة

ببنودة : ليكن .. المهم أن يخرج من قلايتى .. ويرتاح قلبى

الأب ويصا حانيا : أود أن يكون لى مالك من الرقة والضمير اليقظ

ومرت خمسة أسابيع ، وصحة ببنودة تتأرجح بين التقدم والتأخر .

---

(١) نياح = راحة

وإزداد الألم ، وزادت شكوته ، وعاد الآباء يطمئنونه أنهم سيطلبون إلى الأب الرئيس أن يسمح بعرضه على فريق آخر من المتخصصين بالقاهرة ..

ويجيب بينودة بعينين ملؤها الشكر والأمل

• • •

فى المركز الطبى الجديد : قال استاذ جراحة المخ والأعصاب :-

« لابد من عمل أشعة للتأكد إن كان هناك أيّة أورام فى المخ »

ثم عاد الطبيب ليسأل بينودة عما يشعر به ، فقال أنه يشعر منذ أيام بأن الأشياء تهتز أمام عينيه ، أو يرى الشخص شخصين ، وأنه فاقد الشهيّة فى أغلب الأوقات ، وأنه يقوم من النوم على آثر آلام شديدة فى رأسه من الخلف ، كما لم يحدث انه نام – خلال الأسابيع الثلاثة الماضية – أكثر من ساعتين متصلتين .

على أحر من الجمر كان الأب اسحق والأب ارسانيوس

ينتظران نتيجة الأشعة ، نعم فقد كان يساورهما الشك فى الأمر .

وجاءت نتيجة الأشعة لتقع وقع الصاعقة على اثنيهما : ورم خبيث .. Malignant Tumour .

ونظر أحدهما إلى الآخر فى ذهول وتأكداً أنها حالة سرطان Carcinoma (نوع من السرطان) .

وبالطبع لم يكن ببنودة معهما ، ولكنه سمعهما من الداخل ، وتظاهر بأنه لم يسمع شيئاً ، وحفظ الأمر فى قلبه .

وفى الطريق إلى الدير : حاولا بث روح الفرح والرجاء مطمئنين اياه ... وحاول هو أيضا أن يجاريهم كأنه يستجيب لملاطفتهم ..

وبدأت جلسات العلاج – أشعة راديوم Radium – للقضاء على الخلايا السرطانية ،.

وبدأ شعر رأسه يتساقط بعد أول جلسة باسبوع واحد .

كان ينزل إلى المركز الطبى كل خمسة عشر يوماً ، ثم يعود بعد الجلسة إلى قلايته يجتر ألآمه النفسية والجسدية معاً .

وتمنى من قلبه أن يصنع الله معجزة معه ويشفيه ، ووقتها سيعود إلى السيرة الملائكية ، ويترك عنه العبث الصبيانى ، ويعوض كل ما فاته ، ويحب اخوته ويبذل لأجلهم ..

كان يشتهى ساعة واحدة يستطيع أن يمشى فيها دون مساعدة أحد .. أو يقف ليصلى بمفرده .

« نعم . سأضبط نفسى ولسانى .. واحفظ الكتاب المقدس عن ظهر قلب » هكذا صلى باكياً .

وطلب إلى الكل بإلحاح أن يقيموا الصلوات لأجله .

ولكن الألم سخر منه وتعقبه فى كل وقت ، وفوجىء ذات يوم بأنه لا يرى ! وفزع لذلك .. وصرخ صرخة مدوّية ، ولكن الألم فى رأسه كان أقوى فأنساه ظلام عينيه ..

فى آخر جلسة قال الطبيب للراهب اسحق بصوت خفيض : It's Hopeless .. وسمع ببنودة فى هذه المرة أيضا ، وكان يخفى عنهم أن له بعض الالمام بالانجليزية .. فهم أنه لا أمل ..

واستطاع فى ذلك اليوم أن ينفرد بالطبيب حيث قال له : أرجوك أنا راهب ، والمفروض اننى ميت : فلا أخاف الموت ،

كما أنه لا زوجة لى ولا أولاد أقلق بسببهم ، فهلا صنعت معى إحساناً وصارحتنى بالحقيقة ؟

واعدك بأننى سوف أتقبلها كراهب شجاع يريد الانطلاق إلى الله .

وتردد الطبيب محاولاً التملصّ من الاجابة ، ولكن ببنودة ألحّ عليه ..

وإزاء هذا الالحاح والاصرار قال الطبيب وكأنه يلقى بقنبلة :

قدسك مصاب بسرطان فى المخ ..

فقال ببنودة بهدوء : عرفت ذلك ولكن اسألك عن الأمل فى الشفاء .

فرد الطبيب غير المستطاع عند الناس مستطاع عند الله والله أرانا فى حياتنا الطبية أنه قادر على صنع ما يعجز عنه الطب ..

« شد حيلك يا أبونا »

أرسلوا له ذات يوم ، أن اسرته الجسدية بالخارج يطلبون مقابلته ، وارسل يعتذر لهم .. ولكنهم أصّروا ، ولما لم يستطع

بسبب تضعضع صحته (إستسمح الآباء رئيس الدير) لكى تتمكن أسرته من زيارته فى قلايته[1]

وكان لذلك فائدتين : الأولى توفير التعب المضنى الناجم عن تحركه حتى بيت الضيافة ، والثانية لكى لا تلاحظ اسرته إنه فاقد البصر ..

وقد أوصوا إمه أن الزيارة يجب ألّا تزيد عن العشرة دقائق .. ووافقت ووعدت ..

ولم تعرفه والدته ، فقد شحب لونه ، وهزل جسمه ، وقد أبصرت إلى جواره علباً لا تحصى من الأدوية ، فإختلجت مشاعرها وبكت فأبكته معها ، رقت له واستفسرت عن الأمر ، وحاول هو بدوره أن يطمئنها بأنه صداع شديد وسوف ينتهى إن شاء الله .

وغادرت وهى متأثرة جداً .

إشتد الألم أكثر فأكثر ، لدرجة أن ببنودة كان يضرب رأسه فى الحائط فى يأس قاتل ، وكثيراً ما كان يطرد الأباء - الجلوس

---

(١) معروف أنه ممنوع على العلمانيين دخول قلالى الرهبان

حوله – من قلايته ، لا لشيء سوى لأنه لم يعد يطيق حتى نفسه .

وتمادى الداء فى إيذائه ، فقد بدأت الخلايا السرطانية فى إتلاف مراكز السمع والذاكرة معاً .

وأقعده اليأس فى الفراش .. لا يتكلم لأنه لا يسمع ونادراً ما كان يأكل أو يشرب .

ثم بدأ يفكر أكثر من ذى قبل فى أبديته وذلك كلما حضرته الذاكرة ..

نعم ، فهو يعرف جيداً أنه الآن قاب قوسين أو أدنى من الموت

ولما رغب ذات يوم فى التناول من الاسرار المقدسة ، انتبه الآباء إلى أن قلايته تبعد إلى حد ما عن الكنيسة مما يمثل جهداً فائقاً فى الوصول إليها ، فاستأذنوا أحد الأباء وكان يسكن بجوار الكنيسة لافساح مكانه للأب ببنودة ، لكى يتسنى له دخول الكنيسة بمجهود قليل .

وكان يحتاج عند دخوله إلى الكنيسة إلى ثلاثة من الأباء لكى يعاونوه ، ولكنه لم يكن ليستطيع الجلوس أكثر من

نصف الساعة ، وكثيراً ما تململ فى جلسته ، وطلب الرجوع إلى القلاية . وكان عند ذلك يتذكر كيف كان يترك القداسات ، ويجلس على المصطبة الطويلة الكائنة خلف مكتبة الدير ..

• • •

وتناوب الأباء على خدمته ، والسهر على راحته وخدمته ، وكان يعاملهم فى أيامه الأخيرة معاملة خشنة ، وذلك دون قصد منه ، ثم يعود ليعتذر لهم ، وهم بدورهم يأبون ذلك عليه وعليهم ..

وإذا لاح لمن بالدير أن النهاية وشيكة ، وبدا أنه لا يستجيب للعلاج ، أشار عليهم أحد الأباء الأساقفة بإجراء جراحة له فى المخ ..

وحقيقى أنها مجازفة ، ولكن لئلا يلاموا من ضمائرهم فيما بعد ، نعم قالوا : لا مناص من الجراحة ..

وتمت الجراحة ، وانتظروا بكثير من القلق والارتياب (النتيجة) ولكنهم انتظروا طويلاً لعله يفيق من تأثير البنج .

ولكنه لم يفق فى حين أن قلبه لا زال ينبض ، والمخ ماضٍ فى

اعطاء اشاراته المعروفة ..

هى غيبوبة إذن ..

والحقيقة أنه لم يكن فى غيبوبة .. ولكنه لم يستطع أن يحرّك رأسه ..

وأسرعوا بنقله إلى الدير ليتنيح هناك – على حد تعبيرهم – وكان هو بين الحين والأخر يفتح عينيه – اللتان لا تريان – أو يتمتم ببعض كلمات غير مفهومة ..

وبعد يومين وبينما كان الأب الرئيس يعاوده فى قلايته ، سأل الأب اسحق بالانجليزية عن الحال ..

فأجاب اسحق وغصّه فى حلقه I'ts end أيام قلائل لا غير .. وربما ساعات .

• • •

شعر ببنودة وهو يصارع الموت بأن الوجوم سائد على وجوه كل من بالدير ، وأنهم كانوا يطلبون له الراحة من أتعابه لا سيما كلما سمعوا صرخاته المسعورة وهم داخل الكنيسة ..

كان فى اليوم الأخير .. يرتمى فوق الحصير ، يصرخ ويشد

فى لحيته ، والآباء من حوله بين مشجع ودامع وباكٍ .

وأخيراً لاح للكل أن النهاية فى طريقها إليه ، أو بالأحرى هو فى طريقه إلى النهاية ..

واجتمع الآباء عنده يعزّون ، ويشجّعون ، بينما هو يرفس برجليه ويهذى بكلمات رديئة وغير مفهومة . وفيما هم يتبادلون سير الآباء وأقوالهم كان بينودة يحتضر .

— ٣ —

فى تلك الساعة دق باب قلايته .. دقّ .. ودقّ وبدأت صور الآباء الجلوس حوله فى أن تختفى .. رويداً .. رويداً ..

وعاد الباب ليطرق من جديد فى شدة وإلحاح وفتح بينودة عينيه وجعل يفرك فيهما ، وتحسس رأسه وء ...

وإذا به يحلم !

فقام مفزوعاً ، وضرب الغطاء بكل قوة قدمه ، وقفز كمن صعقه التيار ليفتح الباب للأخ بلامون .

ووجد بلامون ليقول له : أخطأت يا أبى كان ينبغى علىّ أن

أوقظك منذ بساعة كطلبك إلىّ ، ولكنى نسيت ذلك ..

ولم يرد بينودة بل انفجر باكياً ..

فى العام الماضى مضيت إلى الدير المذكور للتبرك من قديسيه ورهبانه

وطلبت من الآباء هناك أن يمكنونى من مقابلة أحد الشيوخ لاكشف له أفكارى وأنتفع .. بخبرته وابوته .

وانتظرت طويلاً قبل أن يأتينى الأب بينودة .. تشع من وجهه القداسة والملائكية.. وتحدثت معه قليلاً ووجدت راحة ليست بقليلة .. ولكنه بعد دقائق استأذن منى معتذراً عن عدم امكانه المواصلة فقد ألمّ به صداع خفيف .

فقــراء .. ولكــن .. !

— ١ —

... فحين طابت لباسيليوس المعيشة هناك فى الدير ، ورفض الرجوع — إلى أمه وأخته .. وأرسل إليهما متوسلاً أن يتركاه فى الدير ليكمل حياته فيه .

ولم تكن أمه تتوقع أنه لن يعود من تلك الزيارة ، ولذلك سمحت له بأن يرافق زملاءه الخمسة فى رحلتهم إلى الدير ، وأما هم فقد عادوا بعد ستة أيام ، وأماً هو فقد تشبّث بالحياة هناك ، وأمسك بقرون الدير .

وكان سنه لايتجاوز السادسة عشر حين أرسل لها يقول :—

... « علمت أنك تحبين القديسين ، وترفضين مجد العالم ومظاهره ، وعلمت أنك قد رغبت سابقاً فى الالتحاق بدير القديسه يوستينا للراهبات حينما كنت لاتزالى صغيرة ، ولكن أسرتك ألحّت عليك وتوسلت فقبلت الزواج ...

وعلمت أنك شغوفة بسير الأوائل .. وجلّ إهتمامك أن أكون مثل واحد منهم ...

فهلا سمحت لى أن أحقق غايتى .. وأمنيتك من قبلى ؟!.. أرجوك وأتوسل إليك .. وأقبل قدميك ، لاتدعى رابطة الدم تحول دون سعادتى وسلامى .. »

وحالما وصلت إليها هذه الرسالة ، صرخ نداء العاطفة من داخلها وصرعها .. فقامت لفورها تسعى إلى الدير فى تفر قليل من العائلة ..

وفى الطريق إحتاج الأمر إلى المبيت ..، وحدث فى تلك الليلة أن رأت ولدها قابعاً فى حضن شيخ مهيب وقور تبدو عليه سيماء القوة والاتضاع معاً ، عرفت فيه القديس ثيؤدوسيوس شفيع الدير المذكور ورأت كلاهما فرحين وسمعتهما يرددان لحناً تعرفه هى جيداً ثم رأت سيدة تحاول أن تنتزع ولدها من بين يدى الشيخ والشيخ بدوره يتوسل إليها أن تتركه ، وأما هى ... »

وإستيقظت من النوم ، وبدت ساهمة طوال اليوم التالى ، ماعسى أن يكون هذا الذى رأت ؟!

عندما وصل الركب إلى الدير علم ابنها ، فهرب إلى المغارة التى كان يسكنها قبلاً البار أبوللو ، ولم يرد أن يقابلها لكن أب الدير نصحه بالحضور ، وقد كان له فى ذلك غاية . وهى أن يعرف مدى محبة باسيليوس للدير ، وإصراره على الحياة فيه وقدرته على ضبط عواطفه .

وحالا رأته أمه جرت نحوه كالمجنونة وإنفجرت باكية تحتضنه وتغمغم بكلمات غير واضحة ، وأما هو فقد كان ناظراً لأعلى متماسكاً رزيناً ، ثم إنسحب برفق من قبضتها وأخذها وأجلسها إلى جواره وتركها دقائق ريثما تكفكف دموعها . وأما هى فأردفت تقول :-

- هل هُنَّا عليك بهذه البساطة ..؟

- لا يا أمى فمحبتكم لا زالت فى قلبى ثابتة

- فلماذا تركتنا ونحن أحوج ما نكون لك فى هذه الأيام ، ألعلى ضايقتك فى شىء ؟

- أبدا يا أمى ... وأنا أثق فى أن الله معك وهو يعولنا جميعاً

- (وقد لانت قليلاً) ما رأيك فى أن تأتى معنا ، وسأتركك حالما تتزوج أختك !

– بارك الله فى أفراد العائلة

هنا وتدخلت إبنتها لتقول فى وداعه : لا تلقى بالاً إلىَّ يا أمى فسعادة أخى أمر يهمنا أيضا ، وأرى أنه من الأنانية أن نسعى لراحتنا فقط .

ثم تدخل الرفاق أيضا ليثنوا باسيلى عن رغبته ، ولكنه بوداعته وحجته جعلهم يتراجعون ..

وعادت الأم لتبكى قائلة : إذا تعالى امكث معى حتى أموت وتدفننى ثم بعد ذلك إفعل ما يحلو لك !

واختلجت المشاعر فى داخل باسيلى ولكنه ضبط نفسه وكظم الألم النفسى فى داخله ، وصمت قليلاً حتى يعود إلى شجاعته وهدوئه ثم قال : (ربنا يطول لنا فى عمرك) وعادت لتبكى وتقرع صدرها وتقول : لن أغادر هذا المكان إلا وأنت معى ..

فابتسم باسيلى قائلاً :

إذن إبقى معنا !

وهنا دخل الأب اغطينوس ليستأذنهم فى أن يتركهم باسيلى قليلاً

وإلى أن حلّ المساء لم يكن باسيلى قد عاد لهم .. وأما هم فاستعدوا للنوم ، وعادت الأم ترى فى نومها نفس المشهد الذى رأته فى الطريق إلى الدير ، نفس الشيخ ونفس السيدة التى تحاول أن تنتزع ابنها من بين يديه .

ولست أعلم ماحدث بالضبط .. إذ عندما استيقظت باكراً ، أيقظت أفراد المجموعة وحثتهم على مغادرة الدير . وفيما هم يجمعون متاعهم كانت هى قد أخذت ورقة وقلماً وراحت تكتب :

« ولدى وقرة عينى :

نزلت على رغبتك وكأنى تركت قلبى هنا ودمى ، لا عن رضى ولكن رغماً عنى ، وقسر إرادتى ، ومنذ الآن لن تكون لى خصومة مع الله .. ولكن خصومتى ستكون مع نفسى ، فإذا حققت مرادك من المجىء إلى هنا ، فقد أثلجت قلبى حيَّة وأرحت عظامى فى قبرى ، تركت قلبى عندكم .. وتركت أنت ذكراك لى ، سأجاهد مابقى لى ، حتى أقدمك ذبيحة عقلية للمسيح ، فإن أنا مت فلى رجاء : أن تذكرنى فى كل ترحيم بالقداس الإلهى ..

الرب أعطى والرب أخذ ليكن اسم الرب مباركاً

« المسكينة أمك »

وفى ركن من القلاية نستطيع أن نرى باسيلى مدمع العينين وهو يمزق رسالة فى يده ، وقد بقى شارد الذهن لبضعة أيام قبل أن ينسى ما حدث ، وينظر إلى الأمام .

• • •

كان الأب مرقس - وهو الأب الروحى للدير - قد تجاوز الأربعين من عمره حين تبنى باسيلى منذ دخل إلى الدير ، واعتبر أنه لا زال عجينة طيعة يمكنه تشكيلها حسبما يريد ، فاتبدأ معه منذ البداية ينصحه ويرشده ويساعده فى اقتناء الفضائل ، يركز على فضيلة المحبة مثلاً خلال السنوات الثلاث الأولى .. ثم الاتضاع ثم ..

وأخذ على عاتقه أن يراقبه عن كثب ويوجهه أولاً بأول ، ويعلمه كيف يواجه الأفكار وكيف يتخلص من هجمات الشيطان . ثم كيف يخطب ود ومحبة من حوله .

وتتعجب .. كيف بسهولة ويسر قد صار خادماً للكل ، ويجد سعادة كبيرة فى مساعدة الآخرين وكيف كان يجول يصنع خيراً .

وأما دراسته للأسفار فقد جعلها سراً لا يعرفه من حوله

كذلك فقد حفظ بعض الأسفار عن ظهر قلب .. ولكن أكثر ما برع فيه هو أقوال الآباء وسيرهم ، وكان سيل منها يتدفق عبر فمه على الدوام .. كذلك كانت له علاقات قوية ببعض القديسين .

ومرت سنوات وسنوات ، وباسيليوس فرح بحياته فى الدير ينمو باطراد يوماً بعد يوم حتى لقد كانوا يسمونه «عروس الدير»

ولكنه على أيّة حال لم يسلم من التجارب والاهانات تلك التى يسمونها إكليل الراهب

فى البداية كان يتضايق من الداخل ، دون أن يظهر شيئاً من ضيقه لمن حوله ..

كانت الآية الذهبية التى تداعب شفتيه على الدوام «طلبت وجهك – وجهك يارب أنا ألتمس»
ولكنه اعتاد مع الوقت ألاّ يتأثر من الخارج أو من الداخل بل صار يتقبل كل مايحدث بهدوء وبساطة ..

حدث ذات يوم أنه نسى أن يمر على فلاية أحد الآباء ليعطيه نصيبه من الفاكهة ، فقابله فى اليوم التالى ، ووبخه بشدة واتهمه

بالتقصير وبأنه مرائى ومخادع وكذّاب .. فصنع له الآب باسيليوس مطانية .. وأما الآخر فقد استخف به ! فعاد إلى قلايته يبكى وهو يصلى ويقول :-

« اغفر لى يارب فقد أعثرت أبى ، واضطررته للوقوع فى الخطأ .. اقبل توبتى .. وليقبل هو الآخر توبتى »

وكان يقول لنفسه أيضا فى مثل هذه الظروف .. « لو كنت صالحاً لما تضايق منى (فلان) ولو كنت حكيماً لتصرفت على نحو أفضل ..

حدث أيضا أن كلّفه رئيس الدير ذات مرة ، بإحضار بعض الخوص من مكان به نخل كثير يبعد عن الدير حوالى كيلو مترين ، وحدث عند عودته وكان ليلاً أن هاجمه أثنان من اللصوص وهجما عليه وأوسعاه ضرباً ، آملين أن يأخذوا ما ظناً أنه يخفيه بين طيات ملابسه - ولكنهم عادوا فتركوه والدم ينزف من بعض أجزاء من جسمه ..

وأما هو فأخذ طريقه إلى الدير فى بطء حاملاً حزمة الخوص . وقد لازم الفراش ثلاثة أيام قبل أن يستعيد قوته .

وعاش سعيداً .. فى ملء التعزية وسلام القلب ، يشعر أن يومه أفضل من الأمس وغده سيصير أفضل من يومه واقترح عليه الأب مرقس – أبوه الروحى – أن يدخلا معاً مرحلة أخرى من الجهاد ، فاتفق معه على أن يتصور الآب باسيليوس نفسه وقد ألمّت به بعض التجارب الجسدية .. من ذلك أن يتصرف على إعتبار أنه أعمى !

فكان يختار بعض الأوقات التى تخلو فيها بعض الممرات والسلالم من الحركة ومن الآباء .. ثم يمشى بها كأنه فاقد البصر ، ويستعمل فى ذلك عصا ترشده ، كذلك كان يتدرب فى قلايته على أن يأكل وهو مغمض العينين .. ويصلى كذلك ويقضى بعض أموره ..

وجدير بالذكر أن أحد الآباء فى ذلك الدير قد فقد بصره نتيجة سوء التغذية ..

ومن هنا عكف الآب باسيليوس على حفظ أجزاء كثيرة من الكتاب المقدس يتلوها عن ظهر قلب ، كذلك حفظ المزامير والتسبحة وكثير من أقوال الآباء .

وتخيل أيضا أنه أعرج .. وجرب أن يمشى بعصا يتوكأ عليها ، وتعلم من ذلك أن يسير بهدوء بعد أن كان قد حاول

مراراً ولم يستطع إذ كانت حمية الشباب تجعله يمشى بنشاط زائد ..

وهكذا جرب أن يشارك المعوقين حياتهم بالنّية ، وصار مستعداً لأى تجربة يسمح له الله بها ..

ومر باسيليوس على كل أعمال الدير تقريباً ، أخذ بركتها وبذل مجهوداً كبيراً فى كل موضع ..

فقد عمل (بالمجمع) لفترة تزيد على السنتين .. لم يكتف خلالها بتجهيز طعام الآباء والضيوف والعمال فحسب ، وإنما اهتم بصفة خاصة بالشيوخ والمرضى ، كان يعرف أنهم يحتاجون إلى أنواع معينة من الطعام وطرق خاصة فى تجهيزه ..

وكان يمكنك فى تلك الفترة أن تراه وهو يحمل طبقاً إلى قلاية هذا .. وخبزاً إلى ذاك .. وينتظر ثالث حتى يأكل ...

كان أسعد مايكون عندما يطلب إليه أحد الآباء شيئا خاصاً ، ثم يدعو له بالبركة .. والأبدية .. ولذلك اعتاد أن يعمل كل يوم حتى آخر النهار ، وبين حين وآخر كان يتسلل إلى قلايته يصلى تارة ويقرأ تارة ..

كذلك عندما عمل فى المخبز .. وفى مزارع الدير .

واشتهر ببشاشته وحكمته فى استقبال زائرى الدير ، ولباقته فى صرف الذين لا يستطيع دير إستقبالهم واستضافتهم ، لقد كان صورة مشرّفة للدير ، ومثلاً حياً للمسيح المنظور ، وكما اعتاد الزائرون السؤال عنه : اعتاد هو أيضا الهرب من الضيوف ، عندما أسند إليه الدير عملاً آخر لا يتعلق بالزوار .

كان نشيطاً محبوباً غيوراً ، أحب التسبحة وعشقها ، وأحب أن يكون أول الحاضرين فى الكنيسة بعد دقّ الناقوس ، وفى محبته للكنيسة استأذن (الأب الكنايسى) [1] فى أن يدخل فى الخفاء لينظف الهياكل ، ويزيل نزيف الشمع ويرتب الكتب ويمسح الأيقونات ، ويسرج القناديل ، كما اعتاد مساء كل يوم أن يمضى إلى الكنيسة ليتبارك من جسدى القديس ثيئودوسيوس والقديس بارثلماوس الشهيد ، والمرور أيضا على الأيقونات لتقبيلها .

وروى عنه الآب مرقس ، فقال أنه كان يخصص وقتاً فى كل يوم ليصلى فيه لأجل العالم ...

لأجل الحروب والزلازل والمجاعات .. ومن أجل المسجونين

---

(١) الكنائسى هو الأب المسئول عن كل ما يختص بالكنائس فى الدير .

والمرضى والفقراء ، والذين فى الضيقات ، وكان يشعر أنها مسئولية يجب أن يحملها على كاهله وأن يكون أميناً فيها ..

— ٢ —

وإزاء هذا النمو المطرد فى حياة هذا الآب والظهورات الكثيرة التى كان يتمتع بها ، والقامة التى وصل إليها .. بدأ الآب مرقس يخشى عليه ، فاستدعاه ذات يوم ليقول له :

حياتك الروحية فى خطر ، ويلزم لانقاذها أن تحتمل ما أشير به عليك .

فانحنى الآب باسيليوس خاضعاً منصتاً وقال : سوف أطيع صوت الله على لسانك يا أبى .. فقداستك علمتنى سابقاً أن الطاعة تخلينى مسئولية الطريق .

قال الأب مرقس : إذاً انصت إلىّ جيداً .

كان الأمر بالنسبة للأب باسيليوس مفاجأه غير متوقعة وتجربة لم يمر بها شخص من قبله ، ولكنه قبل دون تردد وإستعد للقيام بالمهمة .

فقد كان عليه أن يترك الدير ويتجه نحو أحدى المدن متخفياً فى صورة إنسان عادى كباقى الناس ، يبحث عن عمل وجدير بالذكر أن الرهبان فى ذلك الوقت لم يكونوا يرتدون ثيابا مميزة ، بل كانوا يظهرون فى أيّة ثياب ، كما كانت عادة إطلاق اللّحى منتشرة بين العامة من الناس فى ذلك الوقت أيضا .

كانت هذه هى المرة الأولى التى يترك فيها الدير .. فقد عاش فيه مدة ثلاثة وعشرين عاماً لم يغادره مرة واحدة ..

ولذلك بهرته الأضواء والزحام والحركة الدائبة والأصوات الصاخبة غير المنقطعة فى مدينة ماتيان .

فى اليوم الأول وقد كان متعباً من طول السفر ، جلس بجوار بحيرة صغيرة ريثما يستريح .. ثم غافله الوقت فإذا بالليل يرض سدوله .. فمد الآب باسيليوس يده إلى الصرّة الصغيرة التى حملها معه من الدير فأخرج شيئاً يشبه السجادة وآخر يستعمل كغطاء .. كان كلاهما مرتقاً لكنهما نظيفان .

وبعد أن قدم صلاة ورشم ذاته بعلامة الصليب ورشم كل الجهات من حوله استسلم للنوم ، وتعجب عندما استيقظ ووجد كل شيء على غير ماألف .. ولكنه عاد وتذكر أنه فى المدينة وليس فى الدير .

وعند الظهر وجد ذاته مهدداً بالملل والضجر ، فتمشى قليلاً يجمع بعض الليف والخوص ثم اختار شجرة باسقة نقل إليها صُرته الصغيرة ، واختارها مكاناً يعيش تحته .. وابتدأ فى عمل الخوص وضفر الحبال .

وكان المسافرون المتجهون إلى سوق ماتيان يمرون به فى ذهابهم وإيابهم ، ولكن لم يلتفت إليه أحد .

وفرغ الخبز الذى معه واضطّر أن يزحف قليلاً إلى الطريق خلال النهار لكى يبيع عمل يديه للمارة .

... فقالت له هذا أمر يرجع إليك ، فإذا أحببت أن تأتى به ليعيش معنا فليكن ما تريد .

أجاب العجوز بطرس : لقد أنّت عليه أحشائى ، وخفق له قلبى فمنذ عشرة أيام وأنا أراه جالساً تحت الشجرة صامتاً هادئاً لا يكلّم أحدًا .

قالت زوجته : أما عرفت اسمه

– وكيف لى ذلك

– إذاً دعه يأكل من جفنتنا ويشرب من كوزنا وينام تحت السقف الذى وهبنا الله أن نأوى تحته

وفى اليوم التالى مر بطرس بالآب باسيليوس ووجده كعادته يعبث فى بعض الليف وبجانبه قطعة حبل

– كيف حالك يا أخى

– أنا بخير أشكر الله

– سامحنى فأين تنام ومما تأكل ؟

– إن الله لا يضيّع ما خلق ولا ينسى خليقته

– فأين الغرض ؟

– الله هو غرضى وهو مقصدى وما طلبت فى حياتى غير وجهه ..

– هلا أتيت معى إلى بيتى والذى يعول الجميع يعولناويسترنا ؟

– ولكنى سعيد على أيّة حال

– فإذا كان الأمر عندك واحداً فلتأت معى – فليس هناك غير زوجتى العجوز ، ونحن نعيش وحدنا فى منزلنا المتواضع ، فإذا وافقت على المجىء معى ، فقد أضفيت على حياتنا السعادة ، وأفسحت لنا المجال لنخدم القديسين .

– أخشى أن أثقل عليكما بوجودى ، فإذا ابتغيتما راحتى فاتركانى ههنا ، وإذا ألحّت عليكما فضيلة العطاء ، فإن خبزة واحدة تكفينى كل يوم ..

– أتوسل إليك ، لا تردّنى ولا تكسر قلبى ، فقد كنت طوال الطريق إليك أمنّى نفس بهذه الأمنية ، وقد صرفت حياتى فى التوانى والكسل وأريد الآن أن يهبنى الله بركة بوجودك معنا ..

– أرجوك .. سأكون مستريحاً إذا ماتركتنى فى موضعى .

– إذاً مارأيك فى حل وسط .. ألا وهو أن نصنع لك كوخاً من الطوب اللبن تعيش فيه ؟

- لا مانع من ذلك والرب يكافئكم عن محبتكم ..

حينئذ بدأ العم بطرس فى إعداد الكوخ .. وصار جاهزاً للسكنى بعد أسبوع واحد

• • •

فى اليوم الأول لخروجه من كوخه ، مضى يتجول فى شوارع المدينة كأنه يبحث عن شيء ما ، فما لبث أن سمع شخصاً يناديه باسمه والتفت ليعرف مصدر الصوت فإذا به إثنان يحمل كل منهما قفة فى يده وطلبا إليه أن يتبعهما . فمشى خلفهما دون أن يعرف وجهتهما .. إلى أن أشارا إليه نحو الكنيسة ثم قال له أحدهما «تشدد . وتشجع .. وكن جبار بأس .. وسترى كم سيصنع الله معك وبك .. وإذا احتجت يوماً إلى الخبز .. فتعالى إلى هذه الطاقة (وهنا اشارا إلى طاقة فى جدار أمامهما) ثم اختفيا من أمامه .

واما هو فقد أخذ منه العجب مأخذاً كبيرا .. وصار يفكر فيما عسى أن يكون هذان الغريبان .. ولكنه على آية حال دخل إلى الكنيسة يصلى ..

وكان القداس الإلهى قد أوشك على الانتهاء .. فإنسل إلى

الداخل حيث وقف خلف أحد الأعمدة وراح يصلى فى نهم وسرور وظل فترة طويلة يصلى قبل أن جاء إليه خادم الكنيسة يسأله الخروج لكى يغلق الباب .. وأطاع .. كما سأل عن مواعيد القداسات ..

وحدث عند عودته إلى مكانه أن شاهد اثنان من الشبان يقذف أحدهما الأخر بكلمات رديئة ، ثم ما لبثا أن هجم الأول على الثانى وأوسعة ضرباً .. فراعه المنظر ولم يصدق عينيه وتعجب من نقص المحبة بين الناس !

انها المرة الأولى التى يجد فيها اثنين يحاول أحدهما التخلص من الآخر أو الانتقام منه .

حاول أن يتجه نحوهما .. ولكن سيدة فاضلة أسرعت إليه تنصحه بالابتعاد وتنهاه عن التدخل لئلا يلحقه أذاهما .

بكى ... وبكى وتأثر وقضى بقية يومه ينتحب ويفكر فيما رآه .. وحاول أن يطرد المشهد من مخيلته ولكنه أخفق ، وعاد ليفكر فى الفرق الشاسع بين الحياة فى الدير والحياة فى العالم .

انه عالم مفتوح على غير ما كان يتوقع ، كل شىء فيه مباح الضرب والسرقة والاتهامات والشتائم ..

وتذكر حينئذ ما حدث منذ عامين وهو لا يزال بالدير ، كيف أن الأب أورانيوس اتهم الآب يوئيل بالاهمال ! وكيف اسرع الآخر ساجداً نحو الأرض إلى أخيه طالباً العفو والنصح ، وكان صادقاً فى اعتذاره وفى طلبه .

وفليمون العجوز المحبوب الذى لم يكن فاه يفتر عن التشجيع والاشادة بفضل كل أحد
(انها بلا شك نقص محبه) هكذا حدث الأب باسيليوس نفسه وأحزنته أفكاره فى تلك الليلة .. كيف سيواصل الحياة فى هذا العالم .. بعد أن ترك الفردوس (الدير) .. إنه يخشى أن تتدنس أفكاره وتخور عزيمته ، ويفقد العين البسيطة ونقاوتها .

ولكنه عاد ليذّكر نفسه : أنه لا بد أن يحيا فى الطاعة وأن حياته ومستقبله هما وديعة بين يدى الله .

وقام ليسجد مصلياً :-

« ليس لى رغبة غيرك يارب .. طلبت وجهك ، وجهك يارب أنا ألتمس ، نعم ليست لى أية أهداف أخرى .... »

ومنذ ذلك الوقت كتب هذه الآية وعلقها على إحدى حوائط الكوخ « طلبت وجهك وجهك يارب أنا ألتمس .. »

واعتاد الذهاب إلى الكنيسة باكر أيام الأحد والأربعاء والجمعة ودون أن يختلط بأحد أو يتعرف على أحد .. كان يصلى هناك القداس الإلهى .. وينطلق بعدها إلى تجواله ..

ولاحظ فى أحد الأيام – بينما كان مستنداً إلى عاموده – رجلاً طاعناً فى السن ، واقفاً بجوار الحائط وقد حمل فى يده زجاجة بها صليب ، ينظر إليها ويبكى طوال القداس الإلهى .. وراقبه الأب باسيليوس بعد انتهاء القداس الإلهى فوجده قد دخل فى صمت إلى الهيكل ليتناول من الاسرار المقدسة ثم يخرج إلى الخارج .. ويختفى قبل أن يزدحم ممر الكنيسة بالخارجين ..

وعاد ليبكت نفسه أنه لم يصل بعد إلى انسحاق هذا الرجل وخشوعه رغم أنه يحيا فى هذا العالم المزعج ..

ومرت ثلاث أو أربع سنوات ، والأمور تسير بطريقة رتيبة دون أن يكتشف أحد أمره ..

وإذا احتاج يوما ما إلى طعام مضى إلى الطاقة التى أشار إليها الغريبان قبلاً فوجد هناك خبزاً طازجاً .. على الرغم من أنه يذهب إلى هناك بطريقة (عشوائية) أى مرة كل فترة طويلة ..

وكان الأب مرقس يراسله بطريقة (شفرية) .. وقد أتى لزيارته بنفسه فى صيف ١٨٢٧م وفرح هو بتلك الزيارة

كذلك الأب مرقس وجلسا يتحدثان طوال الليل وشكى له نفسه وشكى له الشيطان الذى يتربص به ، وشجعه أبوه وحثه على الاستمرار وصلى له وأعطاه حلاً .. وعندما حل موعد الأب باسيليوس مع التسبحة وهما لا يزالان يتحدثان عن عمل الله فى حياتهما ، قاما ليصليا صلاة نصف الليل ثم أعقباها بالتسبحة فصلاة باكر فذكصولوجية باكر - حيث استأذن الأب مرقس فى الانصراف .. بينما اتجه باسيليوس إلى الكنيسة - وشكر الله أنه ضبط نفسه ولم يسأل عن اخوته فى الدير وعن أحوال الدير ..

ويذكر أنه شاهد ذات مرة شاباً لم يتجاوز الثامنة عشر من عمره جالساً يبكى على قارعة الطريق ، فلم يتمالك نفسه بل أسرع نحوه وهدأ من روعه ، ثم عرف منه أنه يعمل لدى أحد الموسرين وقد سلمه فى ذلك اليوم خاتماً ثميناً ليوصله إلى صديق له . ولكن لصوصاً تعقبوه وانفردوا به فى مكان خال حيث ضربوه ضرباً مبرحاً ثم أخذوا منه الخاتم وتركوه يعانى من الذعر والألم .

وأخبره الشاب بأنه خائف من سيده وجبروته وسطوته ، وعاد الأب باسيليوس ليطمئنه بأنه سوف يساعده وأكدّ له أن الله لن

يتخلى عنه لأنه يحبه ، ثم طلب إليه أن يصف له مكان التاجر .. ويجلس هو فى انتظاره حتى يرجع إليه ..

• • •

فوجىء السيد انطونيو بشخص فى حوالى الخامسة والأربعين يدخل إلى حانوته الكائن فى حى (بقراطيوس) فقام ليحييه ويدعوه للجلوس فشكر له الأب باسيليوس لطفه ثم قال :-

أنا أقصدك فى خدمة .. وإن كنت لا تعرفنى

قال التاجر .. تحت أمرك

قال : عفوا ، فنحن جميعاً ألات بيد الله علمت أن لك شاباً يعمل معك

- ألعلك تقصد فرانس

- نعم يا سيدى .. فقد قابلته اليوم ووجدته يبكى متأثراً لأن لصوصاً ..

هنا وانقلبت سحنة الرجل ، فبرقت عيناه واستقامت أذناه وتطاير الشرر من عينيه ، وقام ليضرب مكتبه بيده فى توتر بالغ واضح ..

«ماذا حدث . أسرع فى الكلام» هكذا صرخ فى وجهه فهدأ الأب باسيليوس من روعه وقال له :

ألا تؤمن أن حياتك وكل مقتنياتك هما وديعة بين يدى الله ؟

- نعم

- وهل تشك فى أن الله قادر أن يعوضك عنه بأكثر

- لا أشك

- وهل لو كنت مكان فرانس لنجوت من اللصوص

- (وقد هدأ قليلاً وعاد ليجلس) لا أدرى

- أليست كل الأشياء تعمل معاً للخير للذين يحبون الرب

- نعم نعم ، ولكن أخبرنى ما شأنك أنت فى هذا الأمر .

- الحقيقة أننى رثيت له ، وهو خائف من المجىء إليك

- هل تعرفه ؟

- كلاً ، ولكن قلبى رق له عندما وجدته باكياً متألماً

- والآن !

– أريد أن أتعهد أمامك الآن بأن أسدّد لك ثمنه على فترات ، أى كلما توفر لدىّ أى مبلغ آتى به إليك

– موافق ، لكن ألا يأتى هو لأقف منه على ما حدث بنفسى ؟

– نعم ... فقط عدنى بأنك لن تؤنبه أو تعنفه .

– كلا . كلا ، فإن محبة الذى لم يخطىء تشفع فيمن يخطىء

– إذن سأحضره معى الآن .

وجاء فرانس خجلا ، وكانت المفاجأة أن قام السيد انطونيو من مكانه واحتضن فرانس وقبلّه بحنو ومحبة أبكته .

• • •

واعتاد الأب ، باسيليوس على توفير بعض المال من عمل يديه ليسلمه لفرانس وهو بدوره يسلمه للتاجر وذلك فى كل سبت .. حتى جاء يوم قال فيه التاجر للأب باسيليوس :

هذه هى آخر دفعه فى ثمن الخاتم ، ثم أومأ إلى فرانس فخرج .. ثم قال اجلس الآن لأن هناك شىء أود أن أعطيكه . ثم أخرج من الخزينة صرة بها كل المبلغ الذى دفعه على مدى ثلاثة عشر شهراً وأرفق الصرّة بورقة كتب بها :

[محبتك أذابت قساوتى ، واتضاعك أخجلنى ، اخلاصك حرّك جنين الوفاء والتسامح داخلى ، فإذا وجد فى (ماتيان) اثنان آخران على شاكلتك ، نجت المدينة من الدمار ، وابتهج قلب الله بها]

ثم قام انطونيو ليودعه ويرجوه ألا ينقطع عن المجىء فى كل سبت كعادته .

واعتاد أن يذهب إليه كل سبت لا ليدفع القسط الأسبوعى وإنما ليتسلم منه نفس المبلغ الذى كان يدفعه هو قبلاً .. وخصصه الأب باسيليوس للانفاق سراً على بعض اليتامى الذين عرف أماكنهم

وإذا أحببت أن أوفر عليك الوقت وأعفيك من الملل : قلت لك فى اختصار أن التاجر وخادمه صارا من محبى الكنيسة والقديسين وإشتهرا بعمل الصلاح فى كل المدينة .

وعادت الأفكار لتهاجم الأب باسيليوس وتحاصره .
فأحيانا يفكر فى أمه وأخته وأين هما وكيف آل مصيرهما فقد رآهما لآخر مرة حين كان يرافقهما زوج أخته وأولاده .... وإخوته الرهبان فى الدير ، وماذا يحسبانه الآن ثم أبوه الآب مرقس الذى لم يراه منذ سنوات ألعله انتقل ؟

وماذا عن تدبيره ؟

صحيح أنه لا يزال يلبس منطقته تحت ثيابه ويتمم تدبيره كاملاً فى الصلاة والصوم والتأمل والقراءة .

ثم استطرد شاردًا ...

وماذا عن الثعبان الذى وطأته بقدمى أمس .. ماذ لو كان قد لدغنى ؟ لقد كان ملفوفاً على هيئة (قرص) ؟! لابأس .. إذا كان هذا من أجل بنيانى وخلاصى لا بأس .. لا بأس

يجب على أن أشهد للمسيح فى أى مكان ويتمجد الله بى ومقابل هذا لا أنكر أن الله كان يرسل لى العضد فى الوقت المناسب .

ولن أنس ذلك اليوم المظلم المشئوم ، حيث اتهمتنى إمرأة بأننى فاسد .. وجرنى الناس إلى محفل الشرطة ، وهناك أوسعونى ضرباً وركلاً وسخرية ، وقضيت ليلتين قاسيت فيهما المر والمذلة .

وأصعب من ذلك : عندما سألونى عن اسمى وعملى وأين أسكن وأين أسرتى ؟!

ولكنى أحمل لذلك اليوم الفضل الكبير ، فى انه جعلنى

أشارك الناس فى آلامهم واحس اننى عضو فى الجسد الكبير جسد المسيح (الكنيسة) .
لا بأس .. لا بأس هكذا طيب خاطره !

وقام ليغسل بعض الخيار والطماطم الذى اشترى فى صباح ذلك اليوم ، ثم بلّ الخبز وجلس ليأكل كعادته عند الساعة الثالثة بعد الظهر

فإذا بفتى صغير يبلغه بأن العم بطرس يدعوه للحضور إلى بيته على وجه السرعة ، فقام لوقته ومضى إلى هناك .. ودفع باب حجرة بطرس فى هدوء ودلف إلى الداخل حيث وجده راقداً على فراشه يعالج سكرات الموت ، فمكث إلى جواره عصر ذلك اليوم يطببه ويشجعه ويصلى معه ، وقد ناداه الله عند الغروب .

فكان على الأب ، باسيليوس أن يترك الكوخ باعتباره أحد ممتلكات المتنيّح .. وخشى من خجله من أقارب الميت وخشى أيضا من خجلهم منه ، فخرج فى هدوء حاملاً نفس الصرّة ! فهى كل ما يملك من حطام الدنيا .

وظل المسكين يجوب شوارع المدينة وطرقاتها ، وينام فى العراء يقاسى قرصات البرد ولم يكفه الغطاء الذى كان يستره

داخل الكوخ ، لا سيما وأنه تقدم فى الأيام ، ولم يحتمل جسده المنهك نهش البرد ، فخَر صريعًا يعانى من آلام النزلة الشعبية ..

ومن يعرفه ؟! وقد ترك المدينة إلى مدينة أخرى ، ومن أين ينفق على علاجه وهو الذى إعتاد التصدق بكل مايصل إلى يده ؟ ثم إن الخبزات القليلة التى فى حوزته أوشكت على النفاذ يارب صرت لى ملجأ ، خرجت لأجلك ، ولأجلك احتمل العرى والجوع والمرض هكذا صلىَّ ..

وفرغ الخبز وبقى صائماً بعدها ثلاث أيام متتالية ، وأحسّ أنه فى مواجهة مع الموت ، ولكن الله وضع فى قلب صبى صغير فى الثامنة من عمره أن يميل إليه يسأله عما به ..

فقال فى وهن شديد : أريد خبزًا وماءًا

وبسرعة جرى الصغير نحو بيته ، واحضر له بعض الخبز ، ونصف برتقالة وكوز ماء ، ثم جلس إلى جواره يطعمه ويسقيه ، ثم لمعت فى ذهن الصبى فكرة وهو جالس : لماذا لا يحضر بعض الأغصان ويصنع له كوخاً ؟ وبالفعل قام وجمع بعض الأغصان وبدأ فى اليوم الثانى فى تثبيتها بطريقة عمودية فى الأرض ليصنع منها كوخاً صغيراً ، ثم جعل لها سقفاً وجوانباً من الخوص والحبال ، ثم جمع فى داخلها بعض القش ، فرش

فوقه بعض من ثيابه القديمة .

وبعد أن انتهى فى اليوم الثالث من إعداد الكوخ ، كان الأب باسيليوس قد تماثل للشفاء ، فقام متباطئاً ومتأبطا ذراع الصبى ، ودخل معه إلى الكوخ وكأنه إلى قصر منيف بفراش وثير وشكر الصبى بعينيه الواهنتين فقط .

وأحبّ الصبى الأب باسيليوس جداً ، وكان يقضى معه كل يوم بضع ساعات ، يقتطع بعضاً من أكله ليحضره له فى كل يوم ، ولاحظت أسرته ذلك وسألوه ، فروى لهم قصة هذا الغريب معه ، فجاءوا لزيارته وسرّهم ذلك جداً ورجوه أن يحضر معهم ولكنه اعتذر بأنه مستريح فى هذا القصر الصغير المتواضع ..

وذهب الصبى ذات يوم ليخبر كاهن كنيستهم ، فأتى وصلى على الأب باسيليوس ورشمه بالزيت وطلب إليه أن يراه فى الكنيسة ، ووعده الأب خيراً

واعتاد الصبى أن يجلس إلى جوار الأب باسيليوس يستمع إلى قصصه وأحاديثه ، وهو لا يشبع منها ، وهو بدوره اعتاد أن يقصها على أصدقاءه ، الذين كان يأتى ببعضهم بين الحين والآخر لزيارة الأب باسيليوس .

وحدث يوماً أن نصح الأب ، الصبى بالرجوع حالاً إلى بيته لأن والده محتاج إليه ، وبالفعل عاد ليجد ذاك يبحث عنه . ومرة أخرى أرسل الصبى إلى بيت وصفه له – على الرغم من أنه لم يدخل الشارع الموجود فيه ذلك البيت من قبل . قال له : اذهب إلى الدور العلوى واطرق الباب ، فإذا فتحت لك السيدة التى هناك فقل لها أن تطفىء النار على السطح .

ومضت السيدة مسرعة نحو السطح لتجد ناراً قد بدأت تسرى فى بعض القش ، فأطفأتها على الفور ، وكان ممكناً لهذه النيران أن تشتعل وتنتقل فى سرعة شديدة إلى باقى السطوح المعدّة من الخشب والحديد ، ومكدس فوقها أكوام الحطب واليوص .

وعادت فى سرعة لتبحث عن الصبى ، تسأله كيف عرف ذلك ومن أرسله ، ولكنه كان قد عاد إلى معلمه يطمئنه بأنه قد أبلغ الرسالة .

وفى ذات يوم رأى أربعة رهبان يسيرون تجاه كوخه ، وجرى نحوهم يسلم عليهم ويتبارك بهم ، وكاد يصرخ عندما عرف فيهم الآباء : لوقا ولونجينوس وبسطوروس ويوحنا ، قبل

يديهم مراراً وطلب منهم أن يصلوا عنه ، وأما هم فلم يعرفوه .

ودخل الأب باسيليوس فى صراع نفسى رهيب فى ذلك اليوم : فكر كيف حُرم من الدير ومن اخوته وكيف شرّد هكذا فى أماكن لا يعرفه فيها أحد

تذكر قلايته ووجوه الآباء فى الدير .. ومرافق الدير التى كان يتردد عليها ..

وتذكر الراهب الشاب يوليان ، وبكى بحرارة ..، كان الحبيب إلى قلبه .. وابن سرّه ، وكيف كان عندما يمرض يجلس بجانبه يعيده ويسأله عنه ويصنع له أكله وشربه .

وما الداعى لكل هذه (المرمطة) ؟ أهذه نتيجة الطاعة ولماذا اختار أبى هذه الطريقة ؟! أما كان من بديل آخر ؟ أكان يستطيع أن يسلك هو هذا المسلك الذى سلكته أنا ؟ وهب أنه خاف علىّ من السبح الباطل ، وأراد أن يجعلنى أعيش فى الطاعة .. وأذوق طعم الغربة الحقيقية أما كان هناك من بديل ؟

نعم قال لى وقتها : إن الغربة الحقيقية هى أن تعيش وسط اناس لا تعرفهم ولا يعرفونك ، وتحتاج إلى أن تطعم نفسك وتشترى ثيابك وتبنى كوخك وأما فى الدير فهناك معزون كثيرون وخيرات كثيرة .

آه ..

ولكنى تعثرت كثيراً وصغرت نفس كثيراً .. كيف كان شكلى وأنا فى محفل الشرطة ، وامرأة تقذفنى باتهامات سمعت عنها فقط فى قصص حروب الآباء .

وفيما هو على هذه الحالة سمع وقع خطوات بالقرب من الكوخ وانتبه ، ولطم خده مؤنباً نفسه على تذمره وانسياقه لحيل المحتال

واجتاز مقابلة قافلة من الرجال ، وتجاوزوه

ولكن الأفكار عادت لتطرق رأسه فى عناد وإستبسال .. وماذا إذا مت الآن ؟ فأين ادفن ومن يكفنّى ؟

لا بأس .. هذا لا يهم فالتراب سيعود إلى التراب ..

لا ..لا..

أقوم الآن وأعود إلى الدير

الدير .. الدير ..

ولكن الطاعة .. والأمانة ..

وماذا فى الدير ..

الآباء .. القلاية .. الكنيسة ..

لا بأس فهنا الكنيسة . وهنا الكوخ ، وهنا يعزينى المسيح فقد

قيل لنا أن التعزيات البشرية تمنع التعزيات السمائية .
وصلى : اللهم التفت إلى معونتى ، يارب أسرع واعنّى
ولكن لا .. يكفى ماقاسيته ..

ثم قام مفزوعاً وكأن شخصاً آخر يطرده وجمع صرّته وخرج وعصاه فى يده وصرته على كتفه وانطلق لا يلوى على شىء ..

وحتى مشارف المدينة كان مسبياً بالفكرة
واشتدت الأفكار وثقل عليه التذمر والقلق ، وجلس مكدوداً منهك القوى والعقل .

ووجد راحة فى أن يبكى .. بكى وبكى لساعتين كاملتين ثم نام من شدة التعب ..

وفى نومه رأى شخصاً يشع وجهه محبة وحناناً ووقار شيخ ، عرف فيه أبيه الروحى الأب مرقس وارتمى على صدره يبكى ويتأوه
وفى حنان ربت على كتفيه وعاتبه قائلاً :
لماذا شككت ؟ ولماذ لم تصبر لتكمل جهادك ؟
أترى أن الله سينسى لك تعبك ومحبتك وطاعتك ؟

ثم قبله وأعطاه شيئاً فى يده ، واستيقظ الأب باسيليوس ورأى يده مقبوضة على شيء ، فتحها فلم يجد فيها شيئاً ،

ولكن الطمأنينة سرت فى صدره ، وإبتسم لنفسه وسخر من تذمره ، وفى اتضاع تحدى الشيطان قائلاً :
« نعمه الله التى يهبنى اياها سوف تغلب محبتك للشر وكراهيتك لكل عمل صالح »

وعاد ادراجه إلى الكوخ المبارك ليجد الصبى فى انتظاره يحمل فى يده صرة صغيرة بها بعض خبز الشعير والبيض المسلوق والبلح المجفف ..

وسأله الصبى أين كان .. ولماذا يحمل صرته على كتفه ؟ وصمت ولم يجب وجلس ليأكل من يد الصبى

• • •

ومع الأيام تسللت الشيخوخة إلى جسده ، وظهرت فى قسمات وجهه المبارك ، وأحس بالرضى عن نفسه ، وصار يحمل الشكر والعرفان بالجميل لأبيه المحنك المحبْ .

وقد زاره فى كوخه فى يوم من الأيام رجل شيخ ، وفاجأه بقوله : ألست أنت الراهب باسيليوس ؟

أجاب : نعم ولكن كيف عرفت ذلك:

– أنا راهب مثلك ، أرشدنى الله إليك لأنتفع

– ولكن ليس لدّى ماينفعك ، فسيرتى كلها واحدة وهى اننى مشغول بعمل التوبة ، لأننى أعلم أننى ماض يوماً ما إلى الرب

– فكيف تأكل ؟ ومن يعولك وكيف ثبت فى هذه الرباطات ؟

وجعل الراهب يسأل ، والأب باسيليوس يجيب

– أما افتقدك الملل ؟

– كيف لا ؟ وقد اعتاد الضجر أن يضرب خيمته مقابل خيمتى فى كل ترحالى .

– وكيف تخلصت منه ؟

– الحقيقة إننى لم اتخلص منه ، ولكنى صادقته !

نعم ، صرنا أصدقاء فلم أعد أخش لدغاته ، ولم يعد له سلطان علىّ

وعاد يسأل والأب يجيب

ثم صنعا سوياً صلاة – وانصرف الضيف ..

• • •

— ٣ —

فى ١٤ يوليو سنة ١٨٥١م عرف مصادفة أن الأب مرقس قد تنيح ، دون أن يمرض ..

ولا أستطيع القول بأن الأب باسيليوس قد حزن عليه وإنما بدأ منذ ذلك اليوم يفكر فى العودة إلى الدير ، ليس مهزوماً من الأفكار ولكن لرغبته فى أن يتنيح هناك

فكر أياماً طوالاً .. وبات مشغولاً بهذا الأمر واستحوز على كل اهتمامه ، وبدا مهموماً ..

صلى وصلى .. وبكى طالباً العون ، وأين توجد مسرة الله ، إلى أن استراح قلبه للفكرة .. وبدأ يضعها موضع التنفيذ ..

اختار يوماً كان بترتيب إلهى يوافق نفس تاريخ اليوم الذى نزح فيه من الدير إلى العالم منذ حوالى ٢٤ عاماً

وفى الطريق جعل يفكر .. كيف سيتقابل مع الآباء ؟ وهل يوجد منهم من لا يزال على قيد الحياة ، ممن عاش معهم قبل مغادرة الدير ..

ترى هل سيجد قلايته فى مكانها خلف السلم الأثرى ، والمنارات الست وهيكل القديس بارثينوس ..

واستراح فى الطريق خمس عشر مرة ، واستغرق المسير حوالى اثنى عشر يوماً ، تخللها مرتين أو ثلاثة أشفق فيها عليه بعض الأعراب فحملوه على دوابهم مسافة من الطريق وبدأ يدخل الجبل المقدس فى اليوم الثانى عشر ، بعد أن قطع حوالى مائة وسبعون كيلومترا ..

وهو يذكر أنه لم يمش بهمة وبقوة شباب مثلماً مشى فى البرية ، كان يمشى مثل غزال !

وطفح البشر على وجهه وتمتم مسروراً يحدث نفسه .. تاره يرنم وأخرى يصلى بصوت مسموع .

إلى أن عبر التلة الكبيرة حيث وقع نظره على الدير وجهاً لوجه ، فلم يحتمل ولم يطق صبراً وصرخ من الفرحة وصفق بيديه ، واختلجت مشاعره وبكى طويلاً ..

وكان قد قر رأيه على ألاّ يعرِّف من بالدير بقصته بل سيطلب إليهم كمن يريد دخول سلك الرهبنة ، لكى لا يناله منهم أى مديح أو كرامة ..

ولكى لا يمطروه بالأسئلة والاستفسارات وهو لا يحب أن يضعه الآخرون وسط هالة تميزه عنهم .

• • •

على الباب دق الناقوس فخرج الشيخ الوقور البواب وقابله ببشاشة وفرح فأخبره برغبته فى الانضمام للدير للرهبنة وطلب إليه الشيخ أن يمهله ريثما يبلغ أب الدير ، الذى جاء مع البواب وتحدث معه قليلاً ثم اعتذر فى أدب شديد عن عدم امكانية قبوله لأنه تجاوز السن المناسبة للرهبنة .

وصار الأب باسيليوس يتوسل والأب ماض فى الاعتذار إليه والنصح بأن يطرق سبلاً أخرى لخلاصه
ثم اعتذروا له أيضا بأنهم مضطرون لاغلاق باب الدير واغلقوه !

واحتار ماذا يفعل ؟ وتذكر الصرة التى يحملها على كتفه ، وتذكر الغربة والعرى والجوع
وفرش فرشته بجوار سور الدير
وبعد يومين خرج البواب لقضاء أمر ما ، فوجد إنساناً نائماً بجوار السور فذهب ليستطلع الأمر فوجد الأب باسيليوس راقداً وقد اسلم الروح

وعقد الآباء مجمعاً ماذا يصنعون بجسد هذا الغريب !
وتضاربت الأقوال وكثرت الآراء

وأخيرًا رأى أكثرهم أن يدفن فى المكان الذى تنيح فيه بجوار السور

وهكذا فعلوا

وهكذا دفن

وهكذا أكمل جهاده

عاش غريباً ومات غريباً

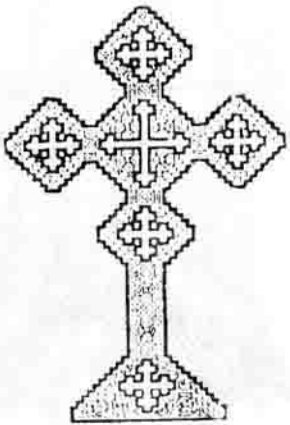

ⲡⲓϣⲱⲣⲓ ⲉⲑⲩ ⲁⲃⲃⲁ ⲙⲱⲥⲏ
الجأ
بنفسك
الى
الله
فتستريح

مطبوعات
دير السريان

كان كل مشتهاه هو الله وعرف أن الأرض وكل ما فيها ومن عليها هى ملك لله ، وهو قد أحب صاحب الطريق أكثر من الطريق نفسه وبالتالى فإن أيّة طريقة تصلح . ولم ينتظر تعزية أو كرامة من إنسان وإنما عاش غريباً على النهج الذى قصده القديس يعقوب حين قال : « الغربة أفضل من إضافة الغرباء » وكان رجاؤه الوحيد أن يخلع خيمته ويدخل إلى المجد مع زمرة القديسين الذين سبقوه .